[13]

هكذا ربى الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه

(28 صفر 1433هـ)

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعـوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد؛

فـإن الحيـاة بلا دين ومبـدأ ثـابت؛ لا تسـاوي شـيئًا في عمر الإنســانية، فالإنســان إنَّما خُلق لأمرٍ عظيم؛ ألا وهو توحيد الله وعبادته، فبهذا الأصل يكون الإنسـان حيًّا كريمًا في حياتـه، وبدونه يكون كالأنعام بل هو أضل.

والثبات على هـذا الأصل العظيم؛ إنَّما هو بتوفيق الله عز وجل للإنسان، وبه يكون شرفه في الـدنيا والآخـرة، وقد سـطَّر الرّعيل الأول لأمتنا تاريخ عز وشرف، بحمل دين الإسلام العظيم، ومبادئه الــتي أحيوها على أرض الواقــع، وضــربوا بثبــاتهم عليها أروع الأمثـال، فهم تربّـوا في مدرسة محمـدٍ عليه -الصـلاة والسـلام-، فغرس فيهم بذور الثبات والتضحية من أجل دينهم ومبادئهم.

والمتتبع لهذه البذور العظيمة، الـتي غرسـها نبيُّنا محمد صـلى الله عليه وسلم في قلوب أصحابه، يجدها في أربعة أمور ظـاهرة، وهي:

أولاً: الإيمـان باللـه، وهـذا الأصل العظيم هو أسـاس كل مبـدأ، فالإيمان بالله يجعل الإنسان حيًّا شجاعًا عزيزًا؛ لأنَّه يـؤمن أنَّ الله هو المبدِئ والمعيــد، وأنَّ الله هو الفعّــال لما يريــد، وأنَّ الله هو الضــار والنــافع، وأنَّ الله هو الــرازق الناصــر، وبــأمره تقــوم السماوات والأرض، وأنَّه على كل شيءٍ قدير، وكل ما تعرّف العبـدُ على ربه؛ كان أكثر الناس أنسًا في الوَحشات، وثباتًا في الملمّات، وملحًا بالدعوات، وهذا هو صدق الإيمان بالله.

ثانيًــا: تعظيم القــرآن العظيم، وجعله منهجًا لحيــاة الإنســان، يســتمدّ منه قــانون حياته الــتي يعيش بها في عقيدته وأخلاقه وتعاملاته، والمتأمل لكتـاب الله في السّـور المكيـة؛ يجد أنَّ أغلبها تســتفتح بــالكلام عن تعظيم القــرآن العظيم، كما هو ظــاهرٌ من سورة الزُّمَر إلى سورة الجاثية، فكلها سورٌ مكية، تتحـدث عن الله بصفاته وآياته وبيانه، فهو الدليل الـبين الواضح في طريق السـير إلى الله، وهو الدليل في التعامل مع كل من خالف مبادئ القـران بالحجة والبرهـان، ويـبين كيفية الصـراع والتصـادم بعد الظهـور والحجة والبرهــان مع الأعــداء، وكما جــاء في قصة نــوح -عليه السلام- عندما قـام بالـدعوة الـتي أرسـله الله بها في دولته الـتي

كان يعيش فيها، فما كـان من تلك الدولة وتلك الحكومة إلا العـداء له ولأصحابه، فكانت سنةً لمن بعده من الأنبياء والرسل، وقد قص القـــرآن علينا منهجية من قبلنا الـــذين قـــاموا في دول كفرية بالتغيير، وكيف كانت تلك الجماعـات الإسـلامية الـتي كـان يقودها الأنبيـاء والرسـل، وقد كـان لفرعــونَ مع موسى -عليه السـلام- قصص في العنف والمواجهة؛ تبين لنا منهجية كل طاغوت محارب لله ورسله عليهم السلام، وابتلاء لأتباعهم؛ حتى يميز الله الخـبيث من الطيب، ثم بعد الابتلاء يـأتي نصر اللـه، كما قـال تعـالى: {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُـــلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُـــواْ كَـــذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُـــؤْمِنِينَ}، فالقرآن منهج كل مـؤمن يـؤمن بالله ربًّـا وبالإسـلام دينًا وبمحمـدٍ صلى الله عليه وسلم نبيًّا، ولن يكون الفلاح والنجاح والثبـات على هـذا الطريـق؛ إلا بتعظيم القـرآن واتخـاذه منهجًا في كل صـغيرةٍ وكبيرة.

ثالثًا: التضـحية، فكلما كـان المبـدأ عظيمًـا؛ كـانت التضـحية من أجله عظيمـــة، فمبـــدأ التوحيد وإقامة شـــرع الله على الأرض أمر عظيم، ولا يملك الإنســان شــيئًا أغلى من نفسه الــتي بين جنبيه يضحي بها من أجل دينه، فمتى كان هذا هو المقياس الـذي يقيس به العبد منهجه ومبــدأه أنَّه أعظم من نفســه؛ هــان عليه ما دونها {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَـهُمْ وَأَمْـوَالَهُم بِـأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُـونَ وَيُقْتَلُـونَ وَعْـدًا عَلَيْـهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْـدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِـرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَـايَعْتُم بِـهِ وَذَلِـكَ هُـوَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ}[التوبـة:111]، وقال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال:39].

رابعًا: الصـبر، وعليه مـدار الأمـر، فبالصـبر يكـون النصـر، قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وأن النصر مع الصـبر"، وقليـلٌ فاعله، وهو من أهمّ الزاد مع التقوى في الثبات على الدين وحمل مبدأ التوحيد والجهاد، فقد قال الله تعالى موجهًا عباده المؤمــنين المجاهدين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُـواْ اللّـهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُـونَ} [آل عمـران:200] وقد كـان نـبي الله محمد صـلى الله عليه وسـلم في مكة يـربي أصـحابه على هـذا الأصل العظيم في أشد أنواع الابتلاء الذي مرّ بأصحابه، فكـانوا يأتونه من شـدة البلاء الـذي يواجهونه من أعـدائهم من كيٍّ بالنـار، وضـربٍ بالسياط، وغـيره من العـذاب، فيـأتون إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم فيقولـون يا رسـول اللـه: ادع الله لنـا، فكـان يجيبهم إجابة المربي لأناس سـيملكون الأرض بعـدل الإسـلام، فعن خبـاب بن الأرت -رضي الله عنه- قال: "شَكَوْنا إِلى رسولِ الله صـلى الله عليه وســلم وهو متوسِّـــد بُـــرْدة له في ظل الكعبـــة، فقلنـــا: ألا تَسْتَنْصِـرُ لنـا؟ ألا تَـدْعو الله لنـا؟ فقـال: قد كـان مَنْ قبلكم يُؤخَـذُ الرجـل، فيُحْفَر له في الأرض، فَيُجْعَـلُ فيهـا، ثم يُـؤْتَى بالمنشـار، فيوضَعُ على رأسـه، فيُجْعَـلُ نصـفين، ويُمْشَـط بأمشـاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يَصـدُّه ذلك عن دينـه، والله لَيُتِمَّنَّ اللـهُ هـذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يخاف إلا اللهَ والذئبَ على غنمه، ولكنَّكم تسـتعجلون"[رواه البخـاري، وأبو داود،

والنسائي]، وكان يربيهم ربُّهم سبحانه وتعالى بضرب الأمثال على الصبر في البلاء حتى يعلمون أن سنة الابتلاء هي مرحلة من مراحل الطريق لإقامة الدين وملك الأرض.

وقد كان أصحاب الأخدود وما قصّه الله في سورة البروج مسليًّا للصحابة في شدة ابتلائهم، عندما كانوا يُكوَون بالنار، ويوضعون على الأرض في شدة حرّ مكة، ويوضع على أجسادهم الحجارة، يقول تعالى: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}، فكان حدث القوم من أصحاب الأخدود في جنوب الجزيرة العربية، وفي نجران خصوصًا أن كانوا على دين ملوكهم، فخرج غلام مؤمن على دين عيسى -عليه السلام-، فكان له أحداث في بلاده مع ملكه الطاغوت، وأكرمه الله بآية آمن له قومه، فحاول الطاغوت أن يردهم عن دينهم فلم يستطع، فما كان منه إلا أن خدّ الأخاديد، وأشعل النار فيها، وأدخل مجتمعًا بكل فئاته العمرية وأجناسه، أطفالاً وشيوخًا، نساءً ورجالاً في تلك النار، ولم يتراجع أحد عن دينه ومبدأه، فوضْع السيف في النار ثم وضعه على الجسم؛ أهون من إدخال الجسم كله في النار، وهكذا كان القصص القرآني يعالج ويربي صفة الصبر عند المؤمنين، حتى يصغر بصبرهم كل بلاء.

ويستفاد مما ذكر:

أولاً: أن لكل إنسان ميزان نفسي، يزن به نفسه ومبادئه، فمنهم مَن نفسه أعظم عنده من ما يحمل من دين ومبدأ، وهذا كثير في الواقع، وآخرون دينهم ومبدؤهم أعظم عندهم من أنفسهم وأهاليهم، وهم قليل، وإن كانت دوافعه الإرشادية الدالة عليه كثيرة، ولكن تحتاج إلى توفيق من الله لها، ورجاء هذا التوفيق قائم على الصدق مع الله في الطلب، كما جاء عنه صلى الله وعليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أَنَّهُ قَالَ: "... يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ..." الحديث.

ثانيًا: إن من بركة الإيمان بالله؛ فقه القرآن، وما فيه من قصص منهجية في كل مجالات الحياة البشرية، وكلما كمل الإيمان في القلب؛ زاد حب تلاوة القرآن والنظر فيه {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

ثالثًا: إن القرآن يقرر لنا مسألة مهمة في فقه التضحية من أجل الدين؛ وهي أن الله سبحانه وتعالى لا يرضى بأقل من النفس والمال أن تقدم لإزالة الشرك وإقامة الدين، وهذه مسألة واضحة جلية، قال الله تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}[الأنفال:39]، فلم يجعل الله وسيلة لإقامة الدين سوى بذل الأرواح بالقتال في قوله سبحانه {وَقَاتِلُوهُمْ}، وقد بين لنا رسولنا صلى الله عليه وسلم هذه المسألة أكمل بيان، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله" [رواه البخاري]، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: "بعثت بالسيف بين يدي الساعة؛ ليعبد الله عز وجل وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالفني، ومن تشبه بقوم فهو منهم" [رواه أحمد]، ولذلك لم يعقد بيع وشراء بين الخالق سبحانه وخلقه أن يشتري منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة إلّا بالجهاد في سبيله وإعلاء كلمته سبحانه، قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة:111].

رابعًا: إنّ الصبر على الطريق يأتي بالتصبر والمصابرة، والنفس قابلة أن تتربى على الصبر، ومن أعظم الدروس التي تتعلمها النفس في هذا الباب؛ هي ما جاء في الكتاب والسنة، ولن يكون هناك شيء مغاير؛ لما فيهما، وهناك أسباب نفسية للصبر؛ وهي الإيمان بالله، وبما يحمل من إيمان جازم لا يدخله ريب ولا يرضى في لجج ومراء، ثم تحديث النفس دائمًا بأن الابتلاء من مراحل الطريق، وهو فترة معينة ويرسخ في نفسه وعقله أنه قادر على تحمل هذه المرحلة، وأنه في عبادة مع الله، ومن أعظمها إغاظة الأعداء بالثبات والصبر عند البلاء، ومن الأسباب الحسيّة؛ طلب العلم، وقراءة السير، والجرأة على قول الحق، والعمل في مجال الدعوة، وملازمة الثغور، ومجالسة أهل البلاء الذين صبروا في الله.

خامسًا: إن المجتمعات لن تتحرك ولن تتبدل؛ إلا إذا كان شبابها هم من يحمل هم التغيير، فقد كان الصحابة في مكة السواد الأعظم منهم شباب، ولم يتجاوزوا الخامسة والعشرين أو الثلاثين إلا القليل، ولم يمنعهم ذلك من أن يكونوا خير أهل الأرض بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم الذي ربّاهم على حمل مسؤولية هذا الدين والدفاع عنه، وكيف كان تحرك الشعوب يأتي تبعًا لهم، وما جاء في قصة الغلام الذي تسبب بدعوته هلاك مجتمع كامل، فيه

النساء والأطفال والشيوبة، وسمى لنا القرآن هذا الهلاك فوزًا كبيرًا، لماذا؟ لأن الموت من أجل التوحيد حياة أعظم وأكمل من الحياة التي تعاش في ردة وشرك، ولم يسمها بالفساد والحماس والتسرع، وغير هذه العبارات التي تبين جهل قائلها بالله والدين.

سادسًا: إن فعل الطواغيت مع شعوبهم إذا أنكروا عليهم وخرجوا عليهم هو الإبادة الجماعية، التي لا تفرق بين صغير وكبير، ورجل وامرأة، وكما هو مشاهد في اليمن وسوريا، وغيرها، وما سنشاهده في المستقبل من هؤلاء الطواغيت التي بليت بها أمتنا منذ عقود، ولكن الصبر على مواجهة الطاغوت ولو أبيدت مجتمعات بأكملها من أجل رفع ظلم هذه القوانين الوضعية؛ فإنه نصر من عند الله.

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى.

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه.. وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

اللهم إنا نسألك بأحب الأسماء إليك أن ترحم ضعفنا، وتقوي عزائمنا، وتثبتنا على الحق الذي يرضيك عنا، وأن تختم لنا بشهادة في سبيلك مقبلين غير مدبرين يا رحمن يا رحيم..

اللهم وحّد صف المسلمين تحت حكمك، وعبد من خيرة عبادك، يقودهم بهدي نبيك صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.